13 me Année No. 604

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٨٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ١٥ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 29 - 1 - 1945

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٠٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٥ صفر سنة ١٣٦٤ — الموافق ٢٩ يناير سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

الفهـــرس

صفحــة

أبو العـــــلاء المعرى (*)

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

— ١ —

كان النبي محمد ، وكان هذا القرآن ، هذا الكتاب المعجز ، فكانت تلك الدنيا العجيبة العربية ، وكان مع الهدى والخير ذلك العلم وذلك الأدب وتلك الفنون ، وكان أولئك الأئمة وأولئك النابغون وأولئك العبقريون ، وكانت تلك المؤلفات الفائقات المحققات ، وكان أولئك المؤلفون الراسخون فى العلم المستبحرون. وكان هذا العبقرى أبو العلاء المعرى (احمد بن عبد الله بن سليمان) رب هذا المهرجان .

كانت الحضارة العربية ، وكانت هذه المدنية الغربية ، ولن يقدر أن يكفر إفضال المفضلين كافرون . فمحمد والقرآن هما شائدا هذا المجد ، وهما القائدان ، وهما الهاديان ، وهما الشمسان الباهرتان ، ذواتا الضياء السرمدى فى العالمين . .

« كما أرسلنا فيكم رسولا يتلو عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون — فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون » .

* * *

(*) الخطبة التى ألقاها الأستاذ فى مهرجان أبى العلاء الذى أقيم بدمشق فى شهر سبتمبر الماضى .

« دمشق عروس الشـــام الموموقة ، وواسـطة عقدها المرموقة » .

فى دمشق هذه التى قلت فيها ــ يا أبا العلاء ــ قولك هذا فى رسالتك إلى (أبى منصور محمد) قد مهرج العربيون لك اليوم هذا المهرجان بعد ألف سنة من سـعادتك بكونك وسـعادة العربية بك . وإن أمة أقامت من بعدك هـذا الدهر الأطول تصارع الكروب والخطوب ، وتقارع تلك الهمجيات الشرقية والوحشيات الغربية ثم لم تَبِـد بل لم تهن ولم تستكن ، إن أمة وقاها كتابها ووقت لغتها ولسـان كتابها ؛ وعرفت قدرها فى الأقدار ، وفضلها من قبل ، ومسماها اليوم ، وأرادت ألا تزول وأن تـكون فـكانت ، إن هذه الأمة لقوية وعزيزة وسـائدة وخالدة فى الخالدين .

* * *

بلاد الشام جلها ، ولا أقول كلها ، و « إن مع اليوم غدا يا مُسعِـدة[1] » لا تردد كثيراً فى الوقت قول الشيخ :

ألفنا بلاد الشـام إلف ولادة   نلاقى بها سود الخطوب وحمرها
فطورا نُدارى من سبيعة ليثها   وحينا نصادى من ربيعة عمرها

فالحال اليوم ــ يا أبا العلاء ــ متهادن ، والدهر مهادن . وفى الدار من قبيلك صالحون وصـادقون ومخلصون و « ما الخلاص إلا فى الاخـلاص » كما يقول ابو منصور الثعـالبي[2] ورئيس القوم[3] ملآن من الفضائل الاسلامية ومن العربية والوطنية ، وهو كما أردت وكما أحببت وكما قلت :

إذا ما تبينا الأمور تـكشفت   لنـا وأمير القوم للقوم خادم

لا يتركنّ قليل الخير يفعله
من نال فى الأرض تأييداً وتمكينا

وقد أتى بكثير الخير وأكثره . ومهرجانك هذا هو حسنة من حسناته .

* * *

(١) من أمثالهم ، قال الميدانى : يضرب مثلا فى تنقل الدول على مر الأيام وكرها
(٢) فى كتابه (المبهج) ورواه في كتابه (الايجاز والاعجاز)
(٣) صاحب الفخامة السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية

كونت العربية فى اللغات تـكوين الألماس[1] والراديوم فى المعدنيات .

« صنع الله الذي أتقن كل شىء »

ولله أن يفضل لسانا على لسان ، وأن يحظى إنسانا على إنسان[2]

« ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات »

والشيخ يقول فى « الفصول والغايات » : « وربك خص بالفضيلة من اختار » وإذا قال العبقرى ابن جنى : « إننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحـكمة والدقة والإرهاف والرقة ما علك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » فما غالى بما قال ولا بالغ بل كان من المقتصدين . وهذا شيخ العربانيين العلامة الـكبير (نَلّينو) الذى حذق لغات متقدمين ومتأخرين من الغربيين والشرقيين يعالن فى خطبة غير متسمح فى الـكلام ولا مُصاد بأن « العربية تفوق سـائر اللغات رونقا وغنى ، ويعجز اللســان عن وصف محاسنها »

« ولو أبصروا ليلى أقروا بحسنها
وقالوا بأنى فى الثنـاء مقصر »

فـ « لغة العرب أفصح اللغات ، وبلاغتها أتم البلاغات[3] »

ولو تمثلت لغة غادة لأنشد المنشدون :

فدقت وجلت واسبكرّت وأكملت
فلو جُن إنسان من الحسن جنت[4]

* * *

فتنت هذه العربية « أبا العلاء » فتونا ، وسحرته فنونها ، فأقبل رجلا مسحورا . شُغف بكتابها « قرآنها » ذاك الشغف ، وكلف بقريضها أى كلف ، وهام بألفاظها هيامه بأقوالها .

(١) هو الالماس ، والهمزة واللام فيه أصليتان ، ولم يصب المجد فى قوله : « ولا تقل ألماس فانه من لحن العامة » وقد وجدت الالماس في (الفائق) ج ١ ص ٣٢٤ وفى (النهاية)
(٢) أحظيت فلانا على فلان من الحظوة والتفضيل (المخصص)
(٣) الزمخشرى .
(٤) الشنفرى الأزدى فى مفضليته (اسبكرت) طالت وامتدت والمعنى — كما يقول الانبارى شارح المفضليات — : دقت فى حينها ، وجلت فى خلقها .

« إن هذا الكتاب الذى جاء به محمد كتاب بهر بالاعجاز . ما حُذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال . . جاء كالشمس اللائحة . . لو فهمه الهضب الرا كد لتصدع[(١)] [وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون] وإن الآية منه أو بعض الآية ليعترض أفصح كلام يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألىء فى جنح غسق [فتبارك الله أحسن الخالقين[(٢)]] » .

« أجدنى ركيكا فى الدين ركاكة أشعار المولدين[(٣)] » .

---

(١) الكتاب يقول : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ..

(٢) ابو العلاء فى (رسالة الغفران) .

(٣) أبو العلاء فى (الفصول والغايات) .

سئل أبو عمرو بن العلاء — كما روى ابن رشيق فى العمدة — عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم . ليس النمط واحدا ، ترى قطعة ديباج وقطعة مسح (ثوب من الشعر غليظ) وقطعة نطع (بساط من الاديم : الجلد)

وروى غير صاحب العمدة لابن الأعرابى هذا القول :

إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا

وللقاضى الجرجانى فى الوساطة بين المتنبى وخصومه ولابن الاثير فى (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) قولان أروعها وان خالفا مقالة الشيخ

قال الأول : ان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان ، ولست أفضل فى هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلى والمخضرم والاعرابى والمولد ، إلا أننى أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر

وقال الثانى :

لقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وانفذت شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى الى إحصاء قول لم تحص أسماء قائليه . فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده . ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم إذ المراد من الشعر إنما هو ايداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك (فكل مكان خيمت فيه — بابل)

(قلت) : قوله (فكل مكان الخ) هو عجز بيت للأبيوردى فى مقطوعة رواها ياقوت فى أثناء خبر من أخبار الشاعر ولا يتضح ما اقتبسه ابن الاثير الا بإيراد المقطوعة بتمامها وهى :

أبابل ، لا واديك بالخير مفعم ... لراج ، ولا ناديك بالرفد آهل
إذا ضقت عنى فالبلاد فسيحة ... وحسبك عارا أننى عنك راحل
وإن كنت بالسحر الحرام مدلة ... فعندى من السحر الحلال دلائل
قواف تعير الأعين النجل سحرها ... وكل مكان خيمت فيه — بابل

ومن علق بأقوال العرب الأقدمين من الجاهليين أو المخضرمين أو الاسلاميين استنزل كلام المحدثين ، وقضى قضاء أبى العلاء . وللكلام العربى القديم سلطان قاهر إذا استمكن من نفس خليطه سحره عما سواه ، فلا يتقبل إلا إياه . ولولا أن عبقرية أبي تمام وعبقرية المتنبى جهرتا الشيخ وبهرتاه ما كان فخم حبيبا فى « رسالة الغفران » ذاك التفخيم مشيراً إلى مقصدات له فائقات ثم قال : « إنى لأضن بتلك الأوصال ، أن يظل جسدها وهو بالموقدة صال ؛ لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متتبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار[(١)] » وما كان افتتن بأبي الطيب تلك الفتنة[(٢)] . وسبك حبيب — وإن كان محدثا — عجيب . ولغته قد ضارعت أو قاربت فى القوة قديمة مطبوعة .

* * *

ذكر صاحب (الغيث المسجم فى شرح لامية العجم) جماعة من « الذين رزقوا السعادة فى أشياء لم يأت بعدهم من نالها »

---

(١) المحار جمع المحارة : الصدفة .

(٢) فى مقالتى (أخبار أبى تمام للصولى) فى الرسالة ٢٢٥ السنة ٦ وفى مقالتى (أبو تمام والمتطف) الرسالة ٢٣٥ السنة (٦) بينت شيئا من فضيلة أبي تمام فى الشعر ، ورويت أقوالا لأئمة فيه ، ومما لم أورده فى تينك المقالتين هذه الأقوال :

كان يقال : أربعة لم يسبقوا ولم يلحقوا : أبو حنيفة فى فقهه ، والخليل فى نحوه ، والجاحظ فى تأليفه ، وأبو تمام فى شعره

فى (الموشح) :

نظر يعقوب الكندى فى شعر أبى تمام فقال : هذا رجل يموت قبل حينه لأنه حمل على كيانه بالفكر ، ويقال : إن أبا تمام مات لنيف وثلاثين سنة

وفيه :

محمد بن أبى كامل قال : شهدت أبا تمام الطائي فى منزل الحسين بن الضحاك وهو ينشد شعره فقال له اسحاق يافتى ، ما أشد ما تتكيء على نفسك ، يعنى أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله وإنما يستق من نفسه

قال أبو بكر الصولى فى كتابه (أخبار أبى تمام) :

حدثني ابو الحسن الكاتب قال : كان ابراهيم البندنيجى يجيئنا كثيراً ، وكان اعلم الناس بالشعر ، ويجيئنا البحترى وعلى بن العباس الرومى ، وكانوا اذا ذكروا أبا تمام عظموه ورفعوا مقداره فى الشعر حتى يقدموه على اكثر الشعراء ، وكل يقر باستاذيته وانه منه تعلم ، وهؤلاء أعلم زمانهم بالشعر ، وأشعر من لقى

(٣) كان ابو العلاء — كما رووا — اذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نؤاس كذا ، قال البحتري كذا ، قال ابو تمام كذا ؛ فاذا أراد المتنبي قال : قال الشاعر كذا تعظيما له

من هناك ودمشق :

نحن والتجـــار ...

للأستاذ علي الطنطاوي

أكتب هذه الكلمة والمطر يهطل منذ ثلاث ليال ، ما انقطع خيطه ، ولا سكت صوته ؛ أقبل بعد سنة مضت ، شحت فيها السماء ، وضنّت السحب ، ففرح به النـاس واستبشروا ، وانتظروا عاماً خيّراً مباركاً ، يغاث فيه الناس ، ويأتيهم الفرج بعد الشدة ؛ غير أن الخير إن زاد عن حده ، كاد ينقلب إلى ضده ، وكذلك المطر لمـا استمر صار الناس يسألون الله الجفاف ، ويتمنون لو تطلع الشمس ، والشمس ما تطلع ، والمطر ما ينقطع ...

ووكفت السقوف ، ونزّت الجدران ، واسـّاقطت غرف ، وسالت طرق الجبل أودية ، فامتلأت بالحصى والحجارة ، وغدت أباطح ، ووقف سيلها الدفّاعُ السيارات وحافلات الترام ، واختبأ الناس في البيوت ، وما تـكاد البيوت تمنع برداً ولا بللاً ، ونال حيّ المهاجرين (على سفح جبل قاسيون) مالم ينل مثله حياً في دمشق ، وحي المهاجرين نصفه قصور من الصخر شاخات ، ذات طبقـات كثر وشرفات ، ونصفه دور لمساكين ، هي أكواخ من اللبِن والطين ، وما في بلدنا مكان يلتقي فيـه الفقر الدقع المتجمل الصابر ، والغنى السفيه الوقح المبذر ، كما يلتقيان وجهاً لوجه في المهاجرين . أما بيوت الأغنياء فما أحسّت المطر ولا درت به ، ونام من فيها على فخم الأسرة ووثير الفرش ، لا يعنيهم من خبر السماء وخبر الأرض إلا أن تشبع بطونهم ، وتمتلىء صناديقهم ، ويسلم لهم أولادهم وأموالهم ، وأما أكواخ الفقراء ، فقد صبرت على المطر صبر الـكريم ، واحتملت ليـلة وليلتين . فلما جاوز الحمل الطاقة ، خرت في المعركة ، كما يخر البطل الشهيد ، وخرج من بقي من ساكنيها فراراً منها حين لم تعد دوراً وإنما صارت بركاً ومستنقعات ...

سقوف بيوتي صرن أرضاً أدوسها
وحيطـان داري ركّع وسجود

وسمعت في الليل هزّة ، اهتزت لها الدور ، ورجفت منها القلوب ، فقمت أستقري الخبر ، فاذا دار جيراننا قد هوت ...

... ومضت ساعة ، وأهل الحمية من الناس يعملون في الوحل والمطر والبرد ، ليواسوا أسرة نزل بها القضاء ، وينقـذوا ما يستطيعون إنقاذه ، من فرشها ومواعينها ، وذلك القصر ينظر الينا ثم يعرض عنا ، قد شغلته حفلة أقامها تلك الليلة لا أدري فيم أقامها ، ولا تزال أنواره ساطعة في عيوننـا ، ونساؤه الـكاشفات يتراءين لنا من وراء الزجاج في الحرير والذهب ، وأصوات الغناء والمرح في آذاننا ، تهزأ بالفقر وأهله ، وتضحك وقحة في مآتمهم ، وترقص فاجرة في مقابرهم ، والسيارات تقف في بابه تنزل منها باقات الزهر ، وثمن كل باقة يحيي الأسرة من هذه الأسر أياما ، والهدايا التي تذهب بالمال ولا تأتي بالنفـع لوحات مصورة ، وكؤوس منقوشة مذهبة ، وتماثيل للناس وللبهائم ، لو وزعت أثمانها على فقراء الحي لم تدع فيه فقراء ، والفضيلة قد توارت خجلاً في زاوية الطريق ، وابليس واقف يضحك مسروراً بأن سلب نفراً من أمة محمـد فضائل دينها ، ومروءتها ، وأن ثأر من آدم فجرد بعض بنيه من بشريتهم ، وأحالهم شـياطين في أجسام بشر ، أو ذئابا قد استخفت في الثياب ... ولم أقل كلابا لئلا أشتم الـكلاب !

فلما جاء إلى الشيخ قال : « أبو العلاء المعري في الاطلاع على اللغة » .

يقول الامام الشافعي في (رسالته في أصول الفقه) :

« لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي » .

ولو أحاط إنسان غير نبي بجميع هذا العلم لكان الشيخ أبا العلاء ، وإن لم يحط به كله فقد أحاط ـ كما يخال ـ بجله . وتلميذه أبو زكريا التبريزي يقول كما ذكر ابن العديم في كتابه (الانصاف والتحري) : « ما أعرف أن العرب نطقت بـكلمة لم يعرفها المعري [١] » .

(١) في (أوج التحري) هذا القول وهو منسوب الى الشيخ في حديث له : « ... والله ما أقول إلا ما قالته العرب ، وما أظن انها نطقت بشيء ولم أعرفه »

ونعجب بعد هذا من ابراهيم بن أدهم لما أخرجوه ليستسقي لهم ، وقالوا له قد استبطأنا المطر ، فادع الله لنا ، فقال : تستبطئون المطر ؟ أنا والله استبطىء الحجارة ...

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى »

* * *

وما هذا القصر لملك ولا أمير ، ولكنه لتاجر من هؤلاء التجار الذين يحيون في أيام الحروب التي يموت فيها الناس ، ويغنون حين يفتقرون ، وينسون أن لهذا الكون إلهاً قادراً عادلاً جباراً ، ما استقال ولا أحيل على المعاش ، ولا يزال لهم بالمرصاد ، وينسون أن الموت آت لامفر لهم منه ، وأن قبل الموت المصائب والرزايا ؛ الفقر والثكل والمرض ؛ وأن بعد الموت الحساب ، وبعد الحساب جهنم أو الجنة ، أفبلغ بالتجار أن يعلنوا الحرب على الله ؟

إننا نعيش بحمد الله في منجاة من القتال وأهواله ، والحرب وبلاياها ، ومالنا عدو يحاربنا ، وما عدونا الا هؤلاء المحتكرون أعداء الله وأعداء البشر ، الذين حبسوا أقواتنا ، وأخفوا أرزاقنا ، وارتصدوا لنا أن نجوع ونعرى ، ليكنزوا الذهب والفضة ويطيفوا بها إطافة الوثني بصنمه ، وليريقوا فيض مالهم على أرجل بنات إبليس : الأرتستات الراقصات ، وفي معابد الشهوة المَلْـهَيات ونوادي القمار ، وفي كؤوس الجحيم التي اسمها الشمبانيا والويسكي ، يحارون ماذا يشترون بمالهم من اللذاذات المحرمة ، وفي أي مطرح من مطارح التبذير يلقونه ، والموظفون والعمال لا يكادون يجدون ثمن الغذاء والكساء ، إلا موظفاً خان أو عاملا سرق ، فما حال الأرملة المفردة ، واليتيم الضائع ، والشيخ الذي لا استناد له من مال أو ولد ، وعندنا في دمشق من الأرزاق والبضائع ما لو أخرج لكفانا الحاجة سنين أخرى ، بل إن عندنا كما أكد لي من يوثق به ، بضائع لا تزال في مخازنها منذ الحرب الماضية ، والناس يحتاجون اليها والتجار يخفونها ويرتقبون بها يوماً أشد ، وضائقة أحكم ، لايدرون أن كل من أخفى بضاعة أو حبسها ينتظر بها ارتفاع الأسعار ، وحرمها من هو في حاجة اليها فهو محتكر قل ما حبسه أو كثر ، وهو عدو مؤذ ، ولص سارق ، وليس بتاجر ، لأن التجارة كما يفهمها عقلي القاصر إنما تكون بنقل البضاعة من بلد تكثر فيه إلى بلد هي فيه قليلة ، أو بجمعها في موسمها لبيعها في غير موسمها ، أو بشرائها جملة وبيعها أفراداً ، ويأخذ التاجر الربح المعقول على مابذل في ذلك من ماله ومن عمله ، أما ماتراه اليوم من اجتماع النفر من التجار حول مائدة من الرخام في (قهوة الكمال) مثلا ، وفي أيديهم أقلامهم وفي أفواههم دخائنهم أو أنابيب نراجيلهم ، يبيع أحدهم (بالة الخام) أو (كيس السكر) عشرين مرة بأسعار مختلفة ، ويشتريها ، وما باع على التحقيق ولا اشترى ، ولا قام من مكانه ولا أخذ ولا أعطى . ثم ينفض الاجتماع وباقي الستار على من ربح منهم عشرة آلاف ليرة ، أو من خسر مثلها ... أما هذا وأشباهه — وما أكثر أشباهه — فما هو لعمر الحق الا القمار بعينه وأنفه وذنبه ...

وإذا كان حقاً ما اعتمده (ريتان) ، من أن الدولة تقوم على (الإرادة المشتركة) ، لا على الأرض وحدها ولا اللغة منفردة ، إلى آخر ما في « نظريته » المعروفة ، فليس التجار منا ولا نحن من التجار ، لأنهم يريدون غير ما نريد ، ولا إرادة مشتركة بيننا وبينهم ، فنحن نرجو الرُّخص وهم يتمنون الغلاء ، ونحن نحب أن تنتهي الحرب وهم يحبون أن تدوم ، ونحن نطالب من الحكومة أن تسعّر وتراقب ، وهم يطلبون لأنفسهم حرية إجاعتنا وتعريتنا ، ونحن لا نجد مالاً نشتري به لوازمنا ، وهم لا يجدون لذة جديدة يصرفون فيها أموالهم ، فأي جامعة بيننا وبينهم ؟

* * *

وإذا كانت الرسالة قد جردت قبل الحرب[1] قلمها البليغ ، لنصرة أكرم مبدأ ، مبدأ الإحسان ، والدفاع عن الفقراء والمحتاجين ، وإثارة الحمية في نفوس الأغنياء القادرين ، ذلك والدنيا في رخاء ، والحياة سهلة ، والسلام قائم ، فأولى أن تسلّ هذا القلم العضب اليوم ، حين اشتد الخطب ، واتسعت بين الفريقين

(١) في النصف الأول من سنة ١٩٣٩

الشقة ، وازداد الأغنياء غنى ، والفقراء فقراً ، ونشأت هذه الطبقة المحدثة النعمة ، التي شبعت من المال ولا تزال في جوع إلى الرفاهية والبلهنية واللذائذ : طبقة « أغنياء الحرب »

إن أهل القصر لا يزالون في لهوهم وقصفهم ، وأهل الكوخ لا يزالون في كدهم وجدهم ، والمطر دائب ما ينقطع ، والبرد قارس ما يخف ، والليل موحش مخيف ، فمن لهؤلاء المساكين ، إن لم تجرد لنصرتهم الأقلام من أغمادها ، وتُشرع حتى تصدع على هؤلاء الأغنياء حجارة القصر الذي اعتصموا فيه ، ليروا ما بالناس ويسمعوا ما خطب المساكين ، من إخوانهم في الوطن واللغة والدين . إنهم في سكرة الذهب ، فاصرخوا فيهم حتى يصحوا منها ، قبل أن يذهب السكر ويأتي « الأمر » ، فيروا أن أمر الله إذا جاء لا يرد . أفهموهم – وكيف السبيل إلى إفهامهم – أننا رأينا رأي العين ، ما قرأنا في الكتب ، ولا سمعنا من الناس ، من غني في الحرب الماضية أكثر مما غنوا ، وبذر أضعاف ما بذروا ، ثم ذهب المال والأهل ، وغدا يسأل الناس على أبواب المساجد ، ولولا أنه يحرم التصريح بعد التلميح ، لصرحت بأسماء أقوام عرفناهم ، وإن جهلهم من قصرت سنه عن أسناننا .

* * *

على أنني ما أعمم القول ، ولا أطلقه إطلاقاً ، وإن في الموسرين لمحسنين ، وفي التجار لمنصفين ، وما تخلو طبقة من خير ولا من شر ، ولكن في الموسرين من يريد الإحسان ولا يعرف المستحق له ، ومن المستحقين من لا يعرف المحسنين ، ومنهم من يعرف ولا يسأل ، أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . وإن من أوجب ما يجب علينا في هذه الحرب أن ننشئ جميات موثوق برجالها ، بأمانتهم ودينهم ، تكون في كل حي كالوسيط بين الغني المحسن والفقير المحتاج ، تأخذ من الأول وتعطي « بعد التحقق من حاجته » الثاني ، ومن عرفت أنه اتخذ السؤال حرفة – على مقدرة منه على العمل ، أو على مال له قد خبأه ، فملَ أكثر هؤلاء الكدين – رفعت أمره إلى الحكومة لتعاقبه عقاب المتشردين . ويا ليت هذه الجميات الإسلامية الكثيرة في مصر والشام والعراق : الإخوان والشبان والهداية والتمدن وأمثالها ، تجعل ذلك الطلب من بعض مطالبها

ثم إن من أهم ما ينبغي لهذه الجميات أن تصنعه هو أن تختار للاحسان أسلوباً يهون به العطاء على المعطي ، وتجزل به المنفعة للآخذ . ولقد وجدت أنا واحداً من مائة أسلوب تخطر على البال ، حين كنت « من نحو ثلاث سنوات » قاضياً في القلمون ، وضاقت الأقوات وقل الخبز ، فدعوت إلى ما سميته « مشروع الرغيف » ، وأعانني عليه القائم بأمر المنطقة يومئذ(1) ففرضنا على أهل كل بيت من القادرين رغيفاً واحداً في اليوم وكلنا من يجمعه ، ووزعنا ما جمعناه على المحتاجين ، وتركنا من هم بين ذلك فلم نأخذ منهم ولم نعطهم ، وهذا الرغيف الذي لا يصعب إعطاؤه على أحد ، ولا تشعر به الأسرة ، أحيا الله به أهل القلمون – وهم أكثر من سبعين ألفاً – في سنة القحط والضيق ، وما ذكرت ذلك لأفخر به ، ولا لأنه الأسلوب البديع الذي لا نظير له ، بل لأمثل به على ما أريد ، والعبرة بالأعمال لا بالأقوال

نسأل الله أن يوفقنا حتى نعمل ، ويرزقنا الإخلاص في عملنا حتى يقبل ، وألا يجعل هذه المقالة كالصرخة في البيداء .

(دمشق) **علي الطنطاوي**

(١) هو القائم مقام السيد زكي غزال من أنشط رجال الادارة في الشام

حول فلسفة نيتشه

سبيل مطروق . . . !

للأستاذ زكريا ابراهيم

اعتقد نيتشه أنه رائد الإنسانية الأول ، وظن أن أحداً قبله لم يطرق السبيل الذى طرقه ؛ ولكنّ الرّواد قبله كانوا كثيرين ، وهذا السبيل الذى ضرب فيه مطروق مطروق ! . فهذا الإيمان الشديد بالأرستقراطية وعبادة الذات ، قد سبقه إليه لاروشيفوكو وهلفتيوس ورينان وتين وبرودون وفلوبير وغيرهم . وذلك الاعتقاد الراسخ باستحالة المساواة بين الناس قد ذهب إليه من قبل « جوبينو » الذى أُعجب به نيتشه أشد الإعجاب . وتلك الكراهية الشديدة للمذاهب الاشتراكية والفوضوية ، قد تردّدتْ من قبل على لسان « هارتمان » الذى أزرى به نيتشه كل الإزراء . وهذه الثورة العنيفة على الأخلاق السائدة والقيَم الجارية ، قد لقيت من قبل فى « جويُّو » أحسن مُعبِّر عنها . وتلك الدعوى الجريئة إلى « اللاّ أخلاقية » immoralisme قد سّبقه إليها أحد معاصريه وهو « شتِرْنرْ » Stirner . — فليست رسالة زرادشت إذن جديدة كل الجدّة على الإنسانية ، وإنما هى رسالة ردّدها على مسمع منها كثير من مفكرى العصر الحديث . وإذا كان فى هذه الرسالة شىء من الطرافة ، فذلك لأنها تعبّر عن شخصية صاحبها التى استطاعت أن تؤلف بين كل هذه الأفكار المختلفة . ومعنى هذا أن ما يروعنا ويستهوينا فى نيتشه ، هو أولاً وبالذات ، شخصيته ، لا آثاره . فهذه الشخصية الرائعة تنطوى فى أعماقها على نفس فنانة ، وقلب شاعر ؛ وفى أبعد أغوارها يكمن « الإنسان العظيم » الذى طالما تحدث عنه نيتشه نفسه !

بيد أننا مع ذلك مضطرون إلى أن نضرب صفحاً عن تلك الشخصية ، لكى نقصر النظر على آثارها . وقد أراد نيتشه أن تحكم عليه الإنسانية بما خلّف من آثار ، فلم يبق إلا أن نحاسبه على هذا الأساس . وما دام هو قد تنكّر للماضى ، وثار على تراث الإنسانية كله ، فلا بأس من أن نحكم على آثاره محاولين أن نتلمس ما فيها من جدّة مطلقة . — ولكن لا بد لنا من أن نقرر قبل ذلك أن نيتشه قد استثنى بعض المتقدمين ، فاعترف بالفضل لطائفة من الكتاب والمفكرين ، ممن أنجبتهم الحضارة الفرنسية « التى هو مدين لها » . وقد حرص نيتشه على أن يذكر بصفة خاصة ستندال ، فإن هذا المفكر الفرنسى — فيما يزعم نيتشه — قد استلبه أجمل فكاهة إلحادية يمكن أن تخطر بالبال ، وهى قوله : « إن العذر الوحيد الذى يشفع لله هو أنه غير موجود ! » . ومهما يكن من شىء ، فإننا إذا استثنينا الإعجاب الذى أبداه نيتشه ببعض المفكرين الفرنسيين ، مثل : بول بورجيه ، وبيير لوتى ، وأناتول فرانس ، وجى دى موباسان ؛ وبعض الشعراء الألمان مثل هينرش هَيْنِى ؛ فإننا نجد أنه كان يعتبر دائماً أن أحداً لم يسبقه إلى تلك الأفكار الرائعة التى أعلنها ، وتلك الآراء الصائبة التى أبداها !

ولكننا نلاحظ — بالرغم من هذا الادعاء — أن جوبينو قد سبق نيتشه إلى كثير من هذه الآراء : فقد نادى جوبينو بانعدام التساوى بين الأجناس البشرية ، واعتبر الجنس الأوربى أرقى الأجناس ، وجعل على رأس هذه الأجناس جميعاً الجنس الجرمانى « الأشقر » . وفضلاً عن هذا ، فقد ذهب أيضاً إلى أن من حق الجنس الأوروبى — باعتباره أرقى الأجناس — أن يتحكم فى الأجناس الأخرى — باعتبارها أجناساً سفلى — وارتأى جوبينو أيضاً أن من الواجب تكوين صفوة أرستقراطية مختارة ، تكوَّن من تلك الجنسيات nationalités التى تنتسب إلى أرقى الأجناس races . — وقد انتشرت هذه الآراء التى نادى بها جوبينو فى ألمانيا كلها ، فأنشئت فى أواخر القرن التاسع عشر ، جماعة تحمل اسم جوبينو ، وتعرف فى ألمانيا باسم : Gobineau Vereinigung . وترددت آراء جوبينو على لسان نيتشه ، فقال فيلسوفنا بأرستقراطية الاجناس ، وإمكان قيام جنس أعلى ، أو نوع راق ، يكون جديراً بأن يطلق عليه اسم الجنس « الأعلى » أو « فوق الإنسانى »

وليس جوبينو وحده هو الذى سبق نيتشه إلى بعض الآراء التى ادعاها نيتشه لنفسه ، بل لقد سبقه إلى ذلك أيضاً فيلسوف

آخر ألمانى ، هو ماكس شترنر الذى نادى بمذهب « اللاأخلاقية » والفردية المطلقة . وسواء أكان نيتشه قد عرف شترنر أم لم يعرفه ، فإن هذا الفيلسوف (الذى عاش من سنة ١٨٠٦ إلى سنة ١٨٥٦) كان سلفاً مباشراً لنيتشه فى المناداة بالمذهب اللا أخلاقى . ويمكن أن تلخص فلسفة شترنر فى عبارة واحدة هى « تقديس الذات » ، أو « عبادة الأنا » . فالذات هى مركز العالم ، والعالم — بما فيه من أشياء وأفكار وأفراد — إنما هو ملك للذات . وكل ما فى الكون ليس له وجود حقيقى بالقياس إلى الذات ، التى هى الشىء الحقيقى الوحيد و « الإنسان » المجرد أو الإنسان باعتباره معنى كلياً (وهو ما يريد فورباخ أن يجعله موضع تقديسنا) ليس له أى وجود حقيقى ، « وإنما هو خيال لا يكون له وجود حقيقى إلا فى ذاتى وبذاتى » . ولما كانت الحقيقة الوحيدة هى حقيقة « الذات » أو « الأنا » فإن فى استطاعتنا أن نتخذ لنا من هذه « الذات » le Moi مبدأ نسميه باسم « الواحد » أو « الفرد » La' unique . وما دامت الذات هى المبدأ الوحيد الذى يجب أن نأخذ به ، فإن علينا أن نستبعد كل سلطة خارجية ، سواء أكانت سلطة « الله » أم « الإنسانية » أم « الأخلاق اللاهوتية » ، أم « الآمر المطلق » . . إلى آخر تلك السلطات التى يراد فرض سيطرتها على الذات . وإذن فإن علينا أن نهدم الأخلاق ، لأن الأخلاق تقوم على « فكرة متسلطة » هى فكرة « الواجب » أو « الآمر المطلق » . وهنا نجد أن نيتشه يتفق مع شترنر ، فإن زرادشت سينادى بهدم الأخلاق ، والثورة على المسيحية التى تضع للحياة قيماً فاسدة منحلة . . . أما القول بعبادة الذات أو تقديس « الأنا » فهذا أيضاً مما يتفق فيه نيتشه مع شترنر ، فإن نيتشه هو الذى يقول : « إن وراء أفكارك وعواطفك (يا أخى) يكمن سيد قوى ، بل حكيم مجهول ، هو ذاتك نفسها Selbst وهو فى بدنك يقيم ، بل هو بدنك نفسه » !

ولا تقف أوجه الشبه بين نيتشه وشترنر عند هذا الحد ، بل إنهما ليتفقان أيضاً فى شىء أعمق من هذا ، وهو القول بإرادة القوة « Wille znr Macht » ؛ فقد جعل شترنر لإرادة التوسع فى القوة ، والامتداد بالذات ، أهمية كبيرة فى فلسفته ، حتى إن هذه الإرادة لتبدو عنده باعتبارها « القوة الأساسية للكائن البشرى » ؛ وهذه الفكرة هى التى ستصبح على لسان زرادشت الأغنية المحببة التى يرددها نيتشه فى كل حين . — فنحن نرى من هذا كله أن شترنر قد سبق نيتشه فى الثورة على الأخلاق ، والانتقاض على المسيحية ، والدعوة إلى عبادة الذات . فلم يكن نيتشه إذن أول من ضرب بقدمه فى هذا السبيل ، بل كان شترنر هو الرائد الأول الذى سار فى الدرب الذى طرقه السابقون ، حتى نهايته . وكل ما فعله نيتشه هو أنه جدد أفكار شترنر ، وردد آراءه — دون أن يكون قد وقف عليها — كما ردد أيضاً آراء السوفسطائيين والكلبيين وبعض المحدثين مثل لاروشيفوكو وهلفتيوس وهولباخ وفريدريك شليجل وستندال — مع وقوفه عليها — .

ونستطيع أن نضيف إلى هؤلاء الفلاسفة الذين أثروا فى نيتشه أو الذين سبقوه إلى الآراء التى نادى بها ، فيلسوفاً آخر يتفق مع نيتشه فى أنه شاعر مثله ، ويختلف عنه فى أنه ليس منحرف الطبيعة مثله . أما هذا الفيلسوف الشاعر فهو جويو Guyau صاحب كتاب « صورة مجملة لأخلاق بلا تكليف ولا جزاء » (١) وقد ذهب هذا المفكر الفرنسى فى مؤلفه مذاهب شتى ، بعضها يتفق مع ما ذهب إليه نيتشه اتفاقاً كبيراً حتى إنه ليصعب علينا أن نتصور أن يكون نيتشه لم يطلع على ما جاء فيها . ومما يتفق فيه الفيلسوفان :

أولا : القول بأن « الحياة هى الكل » tout est vie بمعنى أنه ليس فى وسعنا أن نتصور شيئاً ما على أنه موجود حقيقة إلا إذا كان هذا الشىء حياً .

وثانياً : القول بأن الأخلاق التى تنادى بفكرة الواجب والآمر المطلق ، أخلاق فاسدة يجب القضاء عليها ، لأن الالزام أو التكليف يرجع إلى الحياة نفسها ، إذ الحياة هى التى توفر للفرد الشعور بالقدرة على العمل ، وليس هناك قوة سحرية غريبة « كالآمر المطلق » المزعوم

(١) «Esquisse d' une moryale sans obliqation ni sanction» وهذا كتاب فريد يجب أن ينقل إلى العربية ، ولعلنا نلخص للقراء طرفاً مما جاء به فى مقال نكتبه عن جويو

وثالثاً : القول بأن التشاؤم يدعو إلى الانحلال والفناء ، في حين أن التفاؤل يكسب الحياة خصباً وامتلاء ، فكل من جويو ونيتشه يعتبر التشاؤم مظهراً للانحلال والهبوط والفناء . . .

رابعاً : القول بأن الفن هو المعنى الباطن للحياة بمعنى أنه ليس مجرد متعة أو أُلهية ، بل هو أمر جدي له قيمته في الشعور بالحياة الحافلة الخصبة المليئة . فكل من جويو ونيتشه ينظر إلى الفن نظرة حيوية ، ولا يعده عديم الغاية بل يذهب إلى أن الفن للحياة وبالحياة . ومعنى هـذا أن الفن عنـدهما ليس للفن — كما يقـال عادة — بل هو غائي ، وغايته ليست تقويم الاخلاق أو إصلاح الناس ، بل تقوية الشعور بالحياة

وأما النواحي التي يختلف فيها جويو مع نيتشه ، فهي تلك التي تمس مشكلة « الفردية » ؛ وذلك لأن جويو يعتقـد أن الرجل القوي ليس هو الرجل المتوحد (كما يزعم نيتشه) بل هو الرجل الذي يجمعه بغيره من الناس ، وشائج العقل والقلب . فعلى الرغم من أن جويو يتفق مع نيتشه في القول بالحياة الخصبة المليئة ، إلا أنه يتصور هذه الحياة على أنها أولا وبالذات ، حياة اجتماعية تنعدم فيها الأنانية ، لأن الأنانية سلب للحياة نفسها ، وإنكار لكل خصب أو امتلاء . . ولعل خير ما يوضح لنا الفـارق بين نيتشه وجويو ، هو أن الأول يدعونا إلى اتباع الطبيعـة (كما دعا إلى ذلك الأقدمون) ، في حين أن الثاني يدعونا إلى تعميق الطبيعة . فنيتشه يقول : « اتبع الطبيعـة » Suivez la nature ؛ وأما جويو فانه يقول : « عمق الطبيعة » Approfondissez la nature ومهما يكن من شيء ، فان جويو هو بلا ريب واحد من أولئك الرواد الذين سبقوا نيتشه في الطريق الذي سلكه . وقد رأينا أن هؤلاء الرواد كثيرون ، فهل علينا من حرج بعد هـذا إذا قلنا إن السبيل الذي سلكه نيتشه سبيل مطروق ؟

(السويس) **زكريا ابراهيم**

مدرس بمدرسة السويس الثانوية

إشهار الرؤوس المقطوعة
في أيام العباسيين
للأستاذ ميخائيل عواد

تمهيد:

في مقال سابق لنا ، ذكرنا أخبار « خزانة الرؤوس » في دار الخلافة العباسية ببغداد [1] ، وما ضمته رفوفها من رؤوس لعب أصحابها أدوارا خطيرة في ميادين السياسة والادارة والفكر. وها نحن أولاء ننتقل إلى بحث آخر ذي صلة بهذا الموضوع ، « وهو إشهار الرؤوس المقطوعة في أيام العباسيين » وذلك في مختلف البلدان الاسلامية ، فنقول :

أولاً – نصب الرؤوس في سامراء

١ – رأس الخليفة المستعين بالله :

تنكر الأتراك للمستعين لمّا قتل بعض أعلامهم مثل : وصيف وبغا ، وبني باغر التركي الذي فتك بالمتوكل ، ولم يكن له مع وصيف وبغا أمر حتى قيل في ذلك :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ماقالا له كما تقول الببغا.[2]

وانحل أمره بعد وقعات كثيرة ، فخلع نفسه وأحدر إلى واسط ، فأقام بها تسعة أشهر محبوساً ، ثم رُدَّ الى سامراء ولم يبلغها حتى حُزَّ رأسه ، قال المسعودي : « ولمّا كان في شهر رمضان من هذه السنة ، وهي سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، بعث المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلاقي المستعين ، وقد كان في جملة من حمله من واسط ؛ فلقيه سعيد وقد قرب من سامراء فقتله واحتزَّ رأسه وحمله إلى المعتز بالله ، وترك جثته ملقاة على الطريق ، .... وذكر شاهك الخادم ، قال : كنت عديلاً للمستعين عند إشخاص المعتز له الى سامراء ونحن في عمّارية ، فلمّا وصل إلى القاطول تلقاه جيش كثير ، فقال : ياشاهك انظر من رئيس القوم ؟ فإنْ كان سعيد الحاجب فقد هلكتُ. فلمّا عاينته قلتُ هو والله سعيد ، فقال إنّا لله وانا اليه راجعون! ذهبتْ والله نفسي [1] وجعل يبكي . فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسّوط ثمّ أضجعه وقعد على صدره واحتزّ رأسه وحمله ... [2] »

قال ابن الاثير : « وحُمل رأسه (أي رأس المستعين) إلى المعتز وهو يلعب بالشطرنج ، فقيل هذا رأس المخلوع . فقال ضعوه حتى أفرغ من الدست .. . [3] » .

وفي كتاب « الديارات » للشابشتي وصف مؤثر لهذا المشهد المحزن الذي حلَّ برأس المستعين . قال : « وذكر أحمد ابن حمدون قال : بنى المعتز في الجوسق في الصّحن الكامل بيتاً قدّرته له أمه ومثلت حيطانه وسقوفه ، فكان أحسن بيت رُئي . قال : فدعانا المعتز اليه فكنّا في أحسن يوم رُئي سروراً . وخلف الستارة مغنّية تُغني أحسن غناء ليس لي بها عهد . قال : فنحن في ذاك ، إذ دخل علينا خادم في يده طبق عليه مكبّة ، فوضعه في وسط البيت ، وكان في يد المعتز قدح فشربه وشربنا ، ثم قال للخادم : ارفع المكبّة ، فرفعها ، فاذا رأس المستعين في الطبق . فلما رأيته شهقتُ وبكيتُ . فقال لي المعتز : يا ابن الفاعلة ، ماهذا ؟ كأنك داخلتك له رقّة . فثاب إليّ عقلي وتماسكتُ وقلتُ : ما كان لرقّة ، ولكني ذكرتُ الموتَ . فأمر الغلام بردّ المكبّة ورفع الطبق ، فرفعه . وكان المعتز داخلته فترة ، وكذلك جميع مَنْ حضر وافترقنا عن الحال التي كنّا عليها من السرور . قال : فنحن كذلك إذ سمعنا وراء الستر ضجّة أفزعتنا ، فاذا امرأة تصيح ، وامرأة أخرى تشتم الصائحة ، والصائحة تقول : ياقوم أخذتموني غصباً ثمّ تجيئوني برأس مولاي

(١) الرسالة : (الأعداد ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٩٤٥)

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٢٣٨ ؛ طبع مصر)

(١) وفي رواية أخرى أنه قال : « قد جاء جزار بني العباس » المنتظم لأبي الفرج بن الجوزي (٥ : ٧٢ ؛ في ترجمة أحمد بن طولون)

(٢) مروج الذهب (٧ : ٣٦٩ — ٣٧١ ؛ طبع باريس) ؛ وانظر تاريخ الطبري (٣ : ١٦٧٠ — ١٦٧٥ ؛ طبعة دي غويه)

(٣) الكامل في التاريخ (٧ : ١١٦ ؛ طبعة تورنبرغ = ٧ . ٦١ ؛ بولاق)

فتضمونه بين يدىّ ! فسمعنا صوت العود قد ضرب بعر أُمها . قالَ : وكان الشاتم لها والضارب قَبِيحَة (١) ، وكانت الجارية من جوارى المستعين . قال : فانصرفنا عن المجلس أقبح انصراف وقد تنغّص علينا ما كنا فيه ، ولم تمض إلا أيام يسيرة حتى وثب الأتراك على المعتز فقتلوه . ثم دُعى بنا لننظر إليه فدخلنا عليه فى ذلك البيت ، فإذا هو ممدود فى وَسْطه مَيْتاً (٢) »

٢ — رأس صالح بن وصيف

روى قصته الطبرى فى حوادث سنة ٢٥٦هـ ، ودونك بعض ما قاله فى رواية مقتله : « ... وقيل إنه حُمِل على برذون صِنابى والعامة تعدو خلفه وخمسة من الخاصة يمنعون منه ، حتى انتهوا به إلى دار موسى بن بُغا ... فلما صاروا به إلى حد المنارة ضربه رجل من أصحاب مفلح ضربة من ورائه على عاتقه كاد يقده منها ، ثم احتزوا رأسه وتركوا جيفته هناك ، وصاروا به إلى دار المهتدى ، فوافوا به قُبيل المغرب وهو فى بركة قَباء رجل من غلمان مفلح يقطر دماً ، فوصلوا به إليه وقد قام لصلاة المغرب فلم يره ، فأخرجوه ليصلح ، فلما قضى المهتدى صلاته وخبروه أنهم قتلوا صالحاً وجاءوا برأسه ؛ لم يزدهم على أن قال واروه ، وأخذ فى تسبيحه ... فلما كان يوم الإثنين لسبع بقين من صفر حمل رأس صالح بن وصيف على قناة وطِيف به ونودى عليه : هذا جزاء من قتل مولاه . ونُصب بباب (٣) العامة ساعة ، ثم نحى وفعل به ذلك ثلاثة أيام تتابعاً . وأخرج رأس بُغا الصغير (٤) فى وقت صلب رأس صالح ، يوم الإثنين ؛ فدُفع إلى أهله ليدفنوه ... فقال السلولى لموسى إذ قتل صالح بن وصيف :

وصيفُ بالكرخ ممثولٌ به وبُغا ... بالجسر محترق بالجمر والشرر

(١) هى أم الخليفة المعتز بالله العباسى كانت رومية فائقة فى الجمال فسميت قبيحة من أسماء الأضداد . توفيت بسامراء فى سنة ٢٦٤ هـ

(٢) الديارات للشابشتى ، مخطوط برلين ؛ الورقه ٧٣)

(٣) هو أحد أبواب مدينة سامراء ، له ذكر كثير فى التاريخ . راجع مثلا تاريخ الطبرى « ٣ : ١٢٣٠ ، ١٣١٨ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٥ ، ١٥٢٢ ، ١٦٦٢ ، ١٧٢٣ ، ١٨١١ ، ١٨٢١ ، ١٨٥٩ ، ١٨٧٤ »

(٤) قتل فى سنة ٢٥٤هـ ، وحمل رأسه إلى المعتز ، ونصب فى سامراء ثم فى بغداد ، وأحرقت المغاربة جثته . انظر الكامل لابن الأثير « ٧ : ١٢٦ ؛ ليدن = ٧ : ٦٦ بولاق »

وصالحُ بن وصيفٍ بعد منعفرٌ ... فى الحَيْر جيفته والروح فى سقر (١)

ثانياً — رؤوس جماعة من بنى أمية

بين يدينا أخبار رؤوس لقوم من بنى أمية ، قُطعت قُبيل ظهور دولة بنى العباس ؛ أو إبّان ظهورها ، ثم نُقل بعض هذه الرؤوس إلى العراق ، وكأن من أشهرها :

١ — رأس عبيد الله بن زياد

الوقعة التى قتل فيها ابن زياد مشهورة فى التاريخ . قال ابن عبد ربه : « ... ولما التقى عبيد الله بن زياد وابراهيم بن الأشتر بالزاب . قال : من هذا الذى يقاتلنى ؟ قيل له : ابراهيم بن الأشتر . قال : لقد تركته أمس صبياً يلعب بالحمام . قال : ولما قتل ابن زياد بعث المختار برأسه إلى على بن الحسين بالمدينة . قال الرسول : فقدمت به عليه انتصاف النهار وهو يتغدى . قال : فلما رآه قال سبحان الله ما اغتر بالدنيا إلا من ليس لله فى عنقه نعمة ، لقد أدخل رأس أبى عبد الله على ابن زياد وهو يتغدى . وقال يزيد ابن مفرغ :

إن الذى عاش ختّاراً بذمته ... ومات عبداً قتيل الله بالزاب (٢)

٢ — رأس مروان الحمار :

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بنى أمية . وبقتله طويت صفحة بنى أمية من ديار المشرق . قال ابن الأثير فى رواية مصرعه : « وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه ، وصاح صائح : صُرع أمير المؤمنين فابتدروه ، فسبق اليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمّان فاحتزّ رأسه فأخذه عامر فبعث به الى أبى عَوْن ، وبعثه أبو عَوْن الى صالح ، فلما وصل اليه أمر أن يقصّ لسانه ؛ فانقطع لسانه فأخذته هرّ . فقال صالح : ماذا تُرينا الأيام من العجائب والعبر ، هذا لسان مروان قد أخذته هرّ . وقال شاعر :

(١) تاريخ الطبرى « ٣ : ١٨١٠ — ١٨١١ » ، وانظر الكامل لابن الأثير « ٧ : ١٥٥ ليدن = ٧ : ٨٠ ؛ بولاق »

(٢) العقد الفريد (٣ : ١٥١ — ١٥٢ طبعة القاهرة سنة ١٩١٣)

معرض الفن البريطاني الحديث

للأستاذ نصري عطا الله سوس

الفن لا زمان له ولا مكان، بل هو تراث الانسانية الخالد على مر الأزمان. وحين تتيح لنا أمة من الأمم فرصة مشاهدة آثارها الفنية تمهد لنا السبيل إلى مشاركة فنانيها ورجال الفكر فيها، أسمى أحلامهم وأمانيهم وأنبل عواطفهم واحساساتهم.

ففي الفن وحده يتسامى الانسان عن المطامع والدنايا والمشاغل الدنيوية، ويفسح الطريق لعواطفه ومشاعره التي تؤكد المعنى الانساني فيه، المعنى الانساني الذي لا يعرف الحدود الجغرافية أو المطامع السياسية وما تثيره من أحقاد وضغائن وفرقة، والفن وحده هو النبراس الهادي الذي يذكرنا دائماً أن البشر عائلة واحدة مهما احتدم بينهم الخلاف والبغضاء. وتبادل التراث الثقافي هو خير مايعزز هذا الاحساس في الانسان. ومعرض الفن البريطاني المعاصر الذي أقيم في القاهرة خلال هذا الشهر [1] مجهود طيب من مجهودات «المجلس البريطاني» في سبيل تعزيز الألفة الثقافية والفكرية بين مصر وانجلترا

وقد قسم المعرض إلى أقسام ثلاثة: قسم الصور الزيتية والمائية، وقسم الحفر والنقش، وقسم رسوم الأطفال. ويحتوى القسم الأول على مايقرب من مائة لوحة لأقطاب الفن الحديث في انجلترا، وهي تعطينا فكرة صادقة عن هذا الفن خلال الأربعين سنة الأخيرة. ولا شك عندنا في أن المجهود الذي بذل في انتقاء هذه المجموعة من بين آلاف اللوحات كان مجهودا كبيرا صاحبه التوفيق إلى أبعد الحدود في اختيار خير العناصر التي تمثل مختلف المدارس الفنية المعاصرة في بلاد الانجليز

والفن الانجليزي المعاصر لا يتميز بطابع إقليمي قوي، ذلك لأن غالبية أقطابه تلقوا دراساتهم في البلدان الأوربية الأخرى وبخاصة باريس؛ كما أن سهولة المواصلات وسرعة تبادل الانتاج الفكري ساعد الفنانين الانجليز على سرعة استيعاب المذاهب الفنية الأوربية والتأثر بها.

(١) معرض الفن البريطاني المعاصر بسراى الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة من ١٠ — ٢٨ يناير سنة ١٩٤٥

قد فتح الله مصر عنوةً لكم
وأهلك الفاجرَ الجَعْديَّ إذْ ظلما

فلاك مقوله هــرٌ يجــرره
وكان ربُّك من ذي الكفر منتقما

وسيره صالح الى أبي العبَّاس السفاح. وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجة، ورجع صالح الى الشام . . .، ولما وصل الرأس إلى السفاح وكان بالكوفة؛ فلما رآه سجد ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي أظهرني عليك وأظفرني بك، ولم يبق ثاري قبلك ...» [1]

٣ — رأس مصعب بن الزبير

قال ابن عبد ربه في رواية مقتل مصعب بن الزبير: «... فجاءه عبيد الله بن ظبيان وكان مع مصعب، فقال: أين الناس أيها الأمير. فقال: غدرتم يا أهل العراق. فرفع عبيد الله السيف ليضرب مصعباً، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة، فنشب السيف في البيضة، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعباً بالسيف فقتله. ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان وهو يقول:

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا
وليس علينا قتلهم بمحــرم

قال: فلما نظر عبد الملك إلى رأس مصعب، خرّ ساجداً، فقال عبيد الله بن ظبيان وكان من فتاك العرب: ما ندمت على شيء قط ندمي على عبد الملك بن مروان إذ أتيته برأس مصعب فخر ساجداً؛ أن لا أكون ضربت عنقه فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد .. ، الرياشي عن الأصمعي، قال: لما أُتي عبد الملك برأس مصعب بن الزبير، نظر إليه ملياً ثم قال: متى تلد قريش مثلك ...» [1]

(البقية في العدد القادم)

ميخائيل عواد

(١) الكامل في التاريخ (٥ : ٣٢٧؛ ليدن؛ حوادث سنه ١٣٢ هـ). وراجع تاريخ الطبري (٣ : ٤٤ — ٥١)، ومروج الذهب (٦ : ٧٦)، والفخري في الآداب السلطانية (ص ١٧٥؛ طبعة ألورد).

(١) العقد الفريد (٣ : ٢٥٥)

ولطالما نعى النقـاد — حتى الانجليز منهم — على الفن البريطاني خلوه من الروح الفنية الصحيحة وضعف « معنوية الشكل » فيه ، ولـكن المجموعة المعروضة الآن تثبت أن الفنانين البريطانيين قد تحرروا إلى حد بعيد من ذلك الجمود الذى كان يرن على مجهود الـكثيرين منهم . وفى هذا المعرض مجال طيب لدراسة الفن البريطانى المعاصر، كما أنه مجال خصب للتأملات الحرة التى تتصل بجوهر الفن عامة دون تقيد بعصر من العصور أو أمة من الأمم

وجولة سريعة فى هذا المعرض تقنع المشاهد أن الفنان الانجليزى يبلغ أوجه عندما يرسم مناظر الطبيعة الريفية فى بلاده ، فالصورة رقم ٧ (سنودنيا — لرايموند كوكسن) تتميز بقوة التصميم والتعبير وحرارة اللون ودقته وحيوية العاطفة . والصورة رقم ٨٣ (منظر طبيعى فى وادى ستور — لرولاند سدنى) تمتاز بالتعبير الشـعرى وحسن اختيار اللون والشكل . والصورة رقم ٢٧ (كنيسة — بريشة د . أبز) والصورة رقم ٥٧ (تلال — لفيفيان بشفورت) تمتازان بالألوان الحية المعبرة

والصورة رقم ٧٣ (برارى فى دورست — لستانلى سبنسر) ليست إلا صلاة للطبيعة بالشكل والألوان وهى تتسم بنضوج العاطفة وحرارتها وقوة الأداء ، وتستطيع أن تشعر صادقا وأنت تتأمل هذه الصورة بذلك الشعور الصوفى الذى يستولى على الفنان عندما ينساق إلى الرسم انسياقا استجابة لقوة أكبر منه . . . .

وللرسام ولسن ستير (١٨٦٠ — ١٩٤٢) أربع لوحات . وستير من أقطاب المدرسة التأثرية ، وأحد مؤسسى نادى الفن الانجليزى الحديث الذى كان له أكبر الأثر فى اتجاه الفن المعاصر بانجلترا . تعلم فى باريس ، ورسومه الأولى متأثرة كل التأثر بمانيه ، وديجا ، ومونيه ، ورينوار ، ولـكنه استطاع فيما بعد أن يتخلص إلى حد ما من طابع التأثريين ويسير فى طريق كبار الرسامين الانجليز مثل ترنر وكونستابل وجيتز بورو . وصوره الأخيرة تجمع بين الطابعين الانجليزى والفرنسى . وهو يجيد كل الاجادة عندما يرسم الأراضى المغطاة بالغابات والمساحات الشاسعة التى تغمرها الظلال والأضواء . وهو خير من يبين لنا أى تأثير كبير يستطيع أن يحدثه الفنان الكبير فى نفوسنا مع بساطة الأداء وسذاجته :

وأنا حين أضفى هذه الصفات السخية على هذه الأعمـال الفنية التى ذكرتها لا أعنى أن كل هذه الأعمال توضع جنباً إلى جنب مع روائع التراث الفنى العالمي، ونحن لا نستطيع أبداً وليس من حقنا أن نطالب الفنان بما ليس فى طوقه ، إنما نستطيع أن نلزمه بالصدق والاخلاص لعاطفته والمحافظة على كيان شخصيته وطابعها ، وهو إذا التزم هذه الحدود يستطيع أن ينتج شيئاً ، ونستطيع نحن أن نجد فيه مجالا للمتعة الذوقيـة برغم ما يعتوره من ضعف ، وكل ما يجب أن يتخلص منـه الفنان والناقد والجمهور هو : الانخداع . فعلى الفنان أن يعرف حدود طاقته ولا يتعداها ، وعلينا أن نقدره التقدير الصحيح ونضعه فى موضعه اللائق — وقد قال « جيته » مرة : ما أسعد الرجل الذى يكتشف سريعاً الهوة بين رغباته وبين مقدرته — وطابع الاخلاص ظاهر جداً فى الصور التى تحدثت عنها وهو يكسبها حلاوة وجمالا برغم بساطتها ويسرها . ونطالع طابع البساطة أيضاً فى بعض مناظر الطبيعة الصامتة : فالصورة رقم ٣٨ (منضدة جانب الفراش لادوارد لبا) تعبر عن عاطفة لاتتكلم بل تغنى وتغنى بحرارة تتمثل فى فرحة الألوان الزاهية . والصورة رقم ٩ (زاوية غرفة المكتب لدى بليسس) تقول كل ما تقوله بالالوان فقط وهى تقول شيئا ما برغم بساطة التصميم وفجاجته .

ويعتبر دنـكن جرانت من أقطاب الفن البريطانى الذين يمتازون بالحساسية الشعرية وقوة اللون وحسن اختيار الشكل وبراعة الأداء ، وكل هذا يبدو جليا فى لوحتيه رقم ١٨ (الخوان) ورقم ١٩ (صورة شخصية) ؛ وكأن صفاء نفس صاحبة هذه الصورة الأخيرة سرى إلى نفس الفنان فاختار اللون واللباس والجلسة التى تساعد على إبراز المعانى النفسية الوادعة البادية على وجه السيدة صاحبة الرسم .

وفى المعرض مجموعة لا بأس بها من صور الأشخاص ، من أهمها الصورة رقم ٣١ لجوين جون، وهى صورة جانبية لفتاة صغيرة وهى من فرائد هذا المعرض فى قوة الشكل وحيوية التعبير

وهناك صورة لأوجستس جون بريشته ، وهى تمثل تمثيلاً قوياً الفنان اللاهى دائماً عن عالمنا ، الشارد الذهن دائماً وراء عرائس الإلهام . وجون فنان بوهيمى غذى الفن الإنجليزى

بدماء جديدة بدت غريبة أول الأمر وحدت من شهرته، ولكنه تطور مع الزمن. ويمتاز فنه إبان نضوجه بالميل إلى التبسيط ووضوح الألوان وصفائها. وصور الأشخاص التي يرسمها تمتاز بقوة التعبير وصدق الدلالة على نفسية الشخص المرسوم

ومن الأعلام الممثلين في هذا المعرض السير وليم أوربن الذي لفت الأنظار إليه منذ صدر شبابه لبراعته وقدرته وتمكنه من مختلف نواحي الفن، فمنذ أكثر من ثلاثين عاما وأوربن يرسم صور الأشخاص وصور الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة في يسر وسهولة وتوفيق في التعبير والأداء. ومنهم أيضاً رتشارد سكوت (١٨٦٠ ـ ١٩٤٢) وهو من أصل ألماني، وقد قيل عنه إنه رسام أدبي، أي أنه يعنى بما تقصه الصورة أكثر من عنايته بالشكل. وقد تتلمذ على ويسلر، ولكن غلب عليه طابع التأثريين خاصة ديجا ـ وصوره تغلب عليها الألوان القاتمة والظلال، وكان يفضل الرسم في الأيام الناعمة، وأكثر رسومه لردهات داخلية قليلة الحظ من الضوء

وأود أن أشير هنا إشارة خاصة إلى الصورة رقم ٨٨ (منظر البحر لإثيل ووكر) وهي من أنفس ما في المعرض، والذي يتأمل هذه الصورة تأملاً صادقاً ينسى ما تحكيه ـ أي البحر والأمواج ـ ويذكر العاطفة الحية المتوثبة، الغامضة، الشادية، التي تستولي على نفوسنا أحياناً، فتجعلنا نحس أن الكون لحن كبير قوي، وإننا بعض هذا اللحن نحس موسيقاه في قلوبنا، وتهزنا هذه الموسيقى هزاً منغماً كما يهتز القارب الصغير على صفحة الأمواج اهتزازاً قوياً متداركا

***

قلنا إن الفنان الذي يلتزم حدود ذاته يستطيع أن ينتج شيئاً ما، ونقول أيضاً إن التفرد والشذوذ مع القوة، والإيمان بسداد هذا التفرد والشذوذ عبقرية وأصالة لا شك فيهما

ويتمثل التفرد والشذوذ في أعمال الفنانين المحدثين، ويمثلهم في معرضنا ـ تمثيلاً روعي فيه الجودة والتعقل ـ هنري مور وسذرلند، وآخر ينسج على منوال هذا الأخير اسمه ادوار أرديذون (صاحب الصورتين رقم ١، ٢) وأعمالهم لا تخلو من صدق في العاطفة والأداء

وهنري مور رسام ونحات، وهو كصاحبه سذرلند مجدد يتسم بالجرأة والخروج على الأشكال المألوفة، ورغم ذلك ـ أو لذلك ـ لا يستطيع الناقد إلا أن يسلم له بأنه فنان بل فنان كبير أحياناً

وسذرلند لا يتقيد بالطبيعة إلا فيما ندر، وإذا تقيد بها اختار ما لم تألفه العين من الأشكال والألوان فيوفق أحياناً ويخونه التوفيق أحياناً، وعلى كل أعتقد أنه خير من استطاع أن ينتزع من الطبيعة نفسها مادة للتعبير المجرد المعبر

والجزء الأكبر من إنتاج هؤلاء الفنانين المحدثين لم تتقرر قيمته الفنية بعد، ومن المسف أن يحكم الناقد ذوقه الفردي في ظاهرة فنية عالمية كالتي نحن بصددها. وإن كنا نرى أن النظريات الفنية الحديثة في حد ذاتها معقولة ومقنعة، ولكن الإنتاج الفني نفسه تعوزه القوة والعاطفة والخيال والطواعية أي ينقصه كل عناصر الفن!

وهذا الفن الحديث فيما أرى لا يمثل التحرر من القديم، بل يمثل عنف الثورة والتمرد على القديم ـ والثورة والتمرد عنصران سلبيان، والدافع إليه في الغالب اقتناع ذهني لا تسنده عاطفة أو خيال، وكل ما يستطيع أن يقوله الناقد المعتدل إن هذا الفن قد ينضج مع الزمن

وقد راعى منظمو هذا المعرض ذلك، فهناك صورة واحدة تمثل مذهب السريالزم، وأخرى تمثل المذهب التكعيبي، وثالثة تمثل ما يسمى النيو ريالزم، ورابعة تمثل الفن التجريدي، والأخيرة (رسم رقم ٨٥ لجون تنارد) قطعة فذة في نوعها تمتاز باللون والتصميم وموسيقية التعبير، وهي تبين لنا أن الفنان الصادق الإحساس ينجح دائماً مهما اتسم «الزي» الذي يختاره لعاطفته بالغرابة والبعد عن المألوف

وما دمنا بصدد الحديث عن النزعات الفنية الحديثة يمكننا أن نقول إن الفنان الإنجليزي عامة أخذ يحس ويبرز في لوحاته المعاني اللونية الباطنة للأشكال الطبيعية، ولعل هذا أكبر حسنات النظريات الفنية الحديثة.

نصري عطا الله سوس

المسلمون في بولندا (١)

للأستاذ مصطفى كمال عبد العليم

هناك صفحة ليست معروفة تماما فى التاريخ البولندى تتعلق بتاريخ القبيلة التترية الاسلامية التى استوطنت المنطقة الشمالية الشرقية من بولندا . فكما استقرت الشعوب الإسلامية فى أوربا كتنزاة — إذا استثنينا مسلمى يوغوسلافيا الذين هم من أصل صربى أسلموا عن طريق الغزو العثمانى — كذلك استوطن تتار بولندا اقليما لم يطأه غازٍ مسلم من قبل . ومن المعروف أنهم بدأوا يستقرون فى بولندا منذ منتصف القرن الرابع عشر .

وليس هناك من شك فى أصلهم الجنسى ، فهم من الجنس التركى المتولى انحدروا من امبراطورية جوشى بن جنكز خان وعرفوا باسم « الرعيل الذهبى » فى غربى القبشاق (٢) . ولكى نعرف متى وكيف استقروا فى بولندا يجب أن نعرف أسباب تكوين تلك البقعة الإسلامية الصغيرة وظروف ذلك التكوين ، ثم كيف استطاعت هذه الفئة المسلمة وهى محاطة من كل جانب بشعوب مسيحية — أن تحتفظ بدينها خلال كل تلك القرون ، وبخاصة من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر ، تلك القرون التى تميزت بالنضال المنيف بين المسيحية والإسلام .

هناك حقيقتان ثابتتان أولاهما : أنهم بدأوا فى الاستقرار قبل سنة ١٣٩٢ وذلك من وثيقة ترجع إلى ذلك التاريخ تتعلق بمنح قطعة أرض لأسرة تترية . والأخرى : من وثائق ترجع إلى سنة ١٤٧٥ أمكن معرفة استقرار مركزهم الاجتماعى والقانونى إذ ذاك ، فهم يمتلكون اقطاعيات منحتها لهم السلطات المركزية مقابل تعهدهم بالخدمة العسكرية وقت الحرب . فما هى الأسباب التى دعت هذه السلطات إلى أن تسمح بإيواء عنصر غريب الجنس والدين فى أراضيها ؟ حقيقة أن هناك خدمة إجبارية وقت الحرب مقابل هذا الإيواء ، ولكن حتى هذا الالزام دليل واضح على ثقة السلطات بهؤلاء التتار فما علة ذلك ؟

أخذ أسلاف التتار فى الاستقرار فى ضواحى مدينة فيلنو البولندية التى كانت تابعة لدوقية لتوانيا فى القرن الرابع عشر . وكانت لتوانيا إذ ذاك دولة متسعة ممتدة من نهر تيمن إلى نهر أوكا ، ومن البحر البلطى إلى البحر الأسود ، وكانت مهددة بغارات الفرسان التيوتون فى الغرب ، وامارة موسكو الناشئة فى الشرق التى بدأت تسود الامارات الروسية الأخرى بفضل مساعدة « الرعيل الذهبى » التابعين لموسكو . وكان سكان لتوانيا يبلغون بضعة آلاف ، فكان يخشى أن تنفصل الامارات الروسية التابعة للتوانيا لتنضم إلى موسكو بحكم اللغة ووحدة الدين . فكان على لتوانيا أن تحارب فى اتجاهين متضادين ، وكان على أدواتها تجنب الاشتباك مع الرعيل الذهبى القوى ، وكسب تحالفه إن استطاعوا . وهذا ما حدث فعلا سنة ١٣١٩ . فكان هذا التحالف موجها أولا سنة ١٣٧٠ ضد الفرسان التيوتون ، ثم ضد موسكو ثانياً سنة ١٣٨٠ . هذا هو مبدأ الإتصال بين التتار المسلمين وبين لتوانيا وبولندا . وقد يتصور البعض أنه من الصعب تحالف شعبين أحدهما مسلم والآخر مسيحى فى ذلك الوقت الذى يفور بالعصبية العمياء ، ولكن إذا عرفنا أن اللتوانيين كانوا وثنيين أمكن تصور حدوث مثل هذا التحالف

ثم كان أن اتحدت لتوانيا مع بولندا سنة ١٣٨٦ واعتنق اللتوانيون الكثلكة ، ولم يؤثر ذلك فى سياسة لتوانيا نحو الرعيل الذهبى ، بل بالعكس ازداد انتظام العلاقات الودية بين التتار المسلمين وبين المملكة اللتوانية البولندية المتحدة الكاثوليكية .

لم تعد لتوانيا تقنع باضعاف موسكو ، بل تريد القضاء عليها ، فتدخلت فى شؤون الرعيل الذهبى الذى بدأ يتفكك فأخذت تناصر الخانات الأقوياء لتفيد منهم فى القضاء على إمارة موسكو ، كما شجعت هجرة التتار إلى أراضيها ، ومن ثم سمحت لهم بالاستقرار حول فيلنو كما وجد التتار المطرودون من القبشاق

---

(١) ملخصة عن مقالة « The Muslims in Poland By : L. Bohdanovicz .The gourmal of The Royal asiatic Society. 1942 »

(٢) كانت امبراطورية جنكزخان تمتد من الصين إلى بحر قزوين قسمها بين أولاده الأربعة، وكان من نصيب جوشى البلاد الواقعة بين نهر ارتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين وكان إسم تلك البلاد عامة « القبشاق » ويطلق عليها « الرعيل الذهبى » Golden Horde نسبة إلى خيم معسكراتها ذوات اللون الذهبى (حاشية نمرة ٤ ص ٣٩٤ القسم الثانى من الجزء الأول من كتاب السلوك نشر الدكتور زيادة)

ملجأ رحباً فى لتوانيا . والواقع أن لتوانيا قد جربت اخلاصهم وشدة مراسهم فى الحروب ضد الفرسان التيوتون وضد إمارة موسكو .

وقد عاش التتار فى هذا الاقليم ستمائة سنة ، إلا أنهم كونوا جماعة متميزة بتقاليدها وعاداتها من العنصر الذى عاشوا بين ظهرانيه . ورغم أنهم تزوجوا بمسيحيات نظرا لقلة النساء المسلمات اللائى هاجرن معهم ، فإنهم احتفظوا بدينهم وتمسكوا به كما ظل طابعهم التركى التترى متميزا ظاهرا .

وقد تأثر التتار بالبيئة الجديدة التى استقروا بها . فبعضهم لم ترضه حياة الدعة والاستقرار ، فعادوا إلى مراكزهم الأولى فى القبشاق ، والبعض الآخر بقى ، وهؤلاء كانوا قد تأقلموا فى القرن الخامس عشر ونسوا لغتهم حوالى منتصف القرن السادس عشر . ويرجع ذلك إلى اضطرارهم إلى الزواج بنساء بولنديات ، فشب الأبناء على لغة أمهاتهم ، إذ أن الآباء كثيراً ما كانوا يتغيبون فى الحروب ، وفى هذا تفسير جزئى لاتخاذ المسلمين أسماء بولندية . ولكن برغم كل ذلك لم يضعف تمسكهم بدينهم — كما قلنا — كما أنهم حرصوا على الاتصال الدائم بالعالم الإسلامى وإن كان هذا الاتصال يتأثر بطبيعة الحال بالظروف السياسية . فمن وثيقة ترجع إلى القرن السادس عشر نعرف أنهم حجوا إلى مكة ، كما كانوا فى ذلك الوقت يتداولون فيما بينهم بنقود عربية لابد وأنهم جلبوها معهم بعد عودتهم من الحج ، وكان من الطبيعى أن تفيد منهم الحكومة البولندية بأن تجعل منهم سفراءها لدى الدول الإسلامية ، وهذا مشاهد من إرسال مترجمين ومبعوثين سياسيين من بين التتار المسلمين خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر . ثم من ناحية أخرى كان التتار يستعينون بأئمة وعلماء دينيين من تركيا والقرم ليشغلوا بهم وظائفهم الدينية . ومن الطريف أن نذكر أنهم كانوا يستخدمون الحروف العربيــة فى مؤلفاتهم الدينية والعلمية المؤلفة باللغة الروسية أو البولندية .

وقد بلغ التتار البولنديون القمــة فى تطورهم فى منتصف القرن السادس عشر الذى كان عصراً ذهبياً كذلك للتاريخ البولندى . ويمكن أن تقدر عددهم إذ ذاك بنحو مائة الف . وكان فى كل قرية يقطنها المسلمون مسجدها الخاص ، وفى بعض المدن هناك شوارع تترية إسلامية صرف ، بل وأحياء بأكملها خاصة بهم .

وهناك مرسوم ملكى مؤرخ بتاريخ ٢٠ يونية سنة ١٥٦٨ بين مركزهم بالنسبة للعناصر الأخرى ، وهـذا المرسوم يمين حقوق نبلاء المسلمين وامتيازاتهم ومساواتها بحقوق المسيحيين وامتيازاتهم . والواقـــع أنهم كانوا أقل فى بعض الحقوق من المسيحيين ، فليس لهم حق الانتخاب للمجمع البولندى ، وليس لهم أن يـكونوا أعضاء فيــه أو فى مجالس الولايات . وظلوا محرومين من هذا الحق حتى ظهور دوقية وارسو على يد نابليون سنة ١٨٠٧ . ولـكن من ناحيـة أخرى يشتركون مع النبلاء المسيحيين فى الصفة المميزة لنبلاء العصور الوسطى ، وهى ملـكية اقطاعات من الأرض كان يقطعها لهم الملك ، فكانوا يسمون أحيانا « تتار الملك » وهم إلى حد ما أتباع مباشرون له ، فهم لا يستطيعون توارث ارضهم دون موافقة الملك ، إلا أن هـذا الحق فى التوارث صار نهائياً فيما بعد . أما من الوجهة الاجتماعية فهم مقســمون الى طبقات ثلاث : الطبقة الأولى كبار الملاك ذوى الاقطاعيات الواسعة ، وهم ملزمون بالخدمة العسكرية وبتقديم جماعات من الفرسان كاملى العدة وقت الحرب ، وتضم هذه الطبقة الأمراء والأشراف . والطبقة الثانية الجند العاديون ، ولهم أراض تقل فى مساحتها عن أراضى الطبقة الأولى ، وهم على العمــوم يزرعون أرضهم بانفسهم . أما الطبقة الثالثة فلا يمتلك أفرادها نصابا معيناً من الأرض ، يشتغلون بالزراعة وأعمال النقل والبريد ، إلا أن فى إمكانهم الوصول إلى مركز محترم عن طريق الخدمة العسكرية . وكانت الطبقتان الأولى والثانية معفاتين من الضرائب ، ولكن بمضى الوقت أخذت الفوارق تتلاشى بين الطبقات .

[البقية فى العدد القادم] **مصطفى كمال عبد العليم**

العصبية المفـــرقة

للأســتاذ محمود الشرقاوى

أبرزت الانتخابات البرلمانية التى جرت فى الأسبوع الماضى ظاهرة جزع لها رجال السياسة كما جزع لها المفكرون على السواء هـذه الظاهرة هى تحريك العنصرية الطائفية واستغلالها فى الصراع الانتخابى بين المرشحين والناخبين .

ورجال السياسة والمفكرون من حقهم أن يجزعوا لبروز هذه الظاهرة التى من شأنها — لو أنها لم تتدارك — أن تضعف التماسك الشعبى بين أبناء الأمة وأن تعطل إلى حد كبير سيرها إلى أهدافها الوطنية ووصولها بعد ذلك إلى هذه الأهداف ، وأن تقلل من تقدير الأمم ذوات السيادة للوطن المصرى وللوطنية المصرية ولقيمة الشعب ومكانته من الحضارة والثقافة وما يستتبعه ذلك من اعتراف هـذه الدول لمصر بحقها فى الحياة الحرة وتمكينها مما تتطلبه من مركز حسن بين مجموعة الأمم المتحضرة ومكان ممتاز بين مجموعة الشعوب العربية بوجه خاص

ومن المقاييس الصادقة التى تقاس بها حضارة الأمم وثقافتها وحظ طبقاتها من التهـذيب مقياس التسامح الدينى والطائفى . فكلما كانت الأمة أعرق حضارة وأعمق ثقافة وأرق تهذيباً ، كانت أبعد بطبقاتها وأفرادها عن التعصب الدينى والعنصرى ، ومما يتصل بأى نوع من أنواع التعصب للأقليم أو المهنة أو التعليم أو الثقافة . وكلما كانت الأمة أقرب إلى البدائية فى حضارتها وثقافتها وتهذيب شعبها احتد بين طبقاتها وأفرادها التعصب وتعـددت ألوانه ومظاهره .

وكذلك الأفراد يمكن أن يقاس تهذيبهم رفعة وخفضاً ورقة وغلظة ، وأن تقاس ثقافتهم تعمقاً وسطحية وجوهراً ومظهراً ، بمقياس بعدهم أو قربهم من التعصب لدينهم أو ذاتهم أو إقليمهم أو معهدهم التعليمى أو نوع ثقافتهم .

وهذه كلها بدائه أعتقد أن جمهوراً ممتاز الثقافة والفهم مثل قراء « الرسالة » لابد أن يعرفها ويسلم بها

وكما أبرزت الانتخابات البرلمانية الأخيرة هـذه الظاهرة المؤسفة من مظاهر التعصب الطائفى عند فريق من الناس فتداركها رجال السـياسة والعقلاء من المفكرين ، أبرزت حوادث أخرى مثل إنصاف الطبقات والمتخرجين فى الجامعات والمدارس ظاهرة أخرى لنوع آخر من التعصب للمهنة أو الوظيفـة أو المعهد أو الثقافة ، وكلها ألوان من التعصب هى كما قلنا تمس إلى حد كبير وحدة الأمة وتماسكها ، ويستطيع بعض الناس أن يجعل منها مقياساً لحضارتها وثقافة مجموعها وفهمه لمقومات الأمم وتهذيب الأفراد .

وقد كان هـذا المظهر الأخير من مظاهر التعصب أكثر وضوحاً للمشـتغلين بالصـحافة والذين لهم وعى وحسن إدراك للتيارات الذهنية والتموجات النفسية والفكرية لمجتمع المصرى . كما كان أبرز وأوضح لمن تولوا شؤون هـذا الأنصاف للطبقات والخريجين والحاصلين على مختلف الأجازات العلميـة والشهادات المدرسية وكم سمعنا وقرأنا لهؤلاء الذين تولوا هـذه الشؤون فأدركنا أن الأمر جد ، وأنه مما يستحق أن يشتغل به المفكرون والذين لهم غيرة على وحـدة الأمة الثقافية أو تماسكها الثقافى على الأقل .

وقد كان مما يهون — إلى حد ما — من شأن التعصب العنصرى والطائفى أن فشوه قاصر على السواد وأبناء الشـعب وأن الساسة والمفكرين يقضون على سمومه عند أول نهزة .

ولكن هـذا اللون الجديد من التعصب الثقافى ليس فاشياً بين السواد ولا بين أبناء الشعب ، ولكنه قائم محتدم بين الخاصة والمثقفين منه ، وأن أحداً لم يدرك خطره ولا شره فيعمل على خلاص هؤلاء المثقفين والخاصة منه ، ويعمل على أن يعود بهذه الشيع من المتخاصمين المتنابذين إلى ما يجب أن يكونوا عليه جميعاً من رفعة التهذيب ، ومن تعمق الثقافة وسعة الصدر والأدراك

وقد يكون للسواد والجهلة شىء من العـذر فى أن يتعصبوا وأن يفترقوا وأن يخاصم بعضهم بعضاً فيما لا يجب أن يكون بينهم فيه خصام ، أو فيما يجب ألا يكون بينهم فيـه خصام ، وأن يميز بعضهم بعضاً أو يفاضل بعضهم بينه وبين بعض آخر فيما يجب ألا يكون بينهم فيه تفاضل ولا تمايز . ولكنه لا عذر للمثقفين — إذا أرادوا أن يكون لهم من هـذا الوصف نصيب — فى أن يتنابذوا ولا يتعصب كل منهم وينحاز إلى جانب يراه أرفع شأناً وأميز ثقافة وأقوم فى حياة الأمة وفى نفعها ، ليس لأنه كذلك فى واقع الأمر ، ولكن لأنه هو من هذا الطريق .

محمود الشرقاوى

من كتاب الحياة

شريـــد ...

للدكتور عزيز فهمى

مرّ بى كالخيالِ فى أسمالِه   واهياً كالخيالِ عند زوالِه
حائرَ الطرْفِ والخطى كطريدٍ   ذاهلاً عن يمينه وشمالِه
راعشاً والسماء تمطرُ سيْلاً   يُنذِرُ الرعدُ صاخباً بانهيالِه
يَهرأ البرْدُ ما يواريه بُرْدٌ   وصريرُ الرياحِ دون سُعالِه
أيها العابرُ المُجِدُّ تمهّلْ.   أنتَ أحْرى بأنْ ترِقَّ لحالِه!

صِحْتُ: ياطفلُ! لم يكَدْ ينتبهْ لى
فتبِعتُ الشريدَ والقلبُ والِه

حيثُ أثْوى بمسْجدٍ غيرِ ناء   مُطرِقاً من حيائه وسؤالِه
والمُصلّونَ مَنْ يُسبِّحُ منهم   عازفٌ عن فضوله وابتذالِه
حَرَماً ياأخى وياصاحِ جمعاً...   أينَ مِنْ وقعِها ذليل مقالِه؟
لم يجدْ راحماً ولا مُستجيباً   بعْدَ ما بُحَّ صوتُه من كلالِه
فانثنى عائداً بخُفّىْ حُنيْنٍ   كاسفَ البالِ مُشفقاً من مآلِه
ثمّ ولّى إلى الكنيسةِ وجهاً   واستجارَ الفتى بعيسى وآلِه.

ردّه سادنُ الكنيسةِ ركْلاً
ليْتَ من ردّهُ استحى من جلالِه!

ما على الدّيْرِ لو أقام نهــاراً
أو أطالَ الوقوفَ فوقَ احتمالِه؟

قضى هائماً على غــيرِ وجهٍ
ليسَ يَلْوى على هُدًى فى ضلالِه

وإذا بى أرى فتًى أرْيحيًا   هزّهُ النُّبلُ لا يضِنُّ بمالِه
يتْرُكُ الحانَ والنّدامى ويعدو   كالذى فرّ ناشطاً من عقالِه

صاحَ بالطفلِ يا بُنَىَّ انتظرنى   لحظة: فالطريق فى أوحالِه
وانتضَى ثوبَه وقالَ تدثّرْ...   وأضافَ الجوادُ بعضَ نوالِه
فتأمّلْتُ ما رأيتُ مليّا   ذلكَ الدرسُ فاعتبِرْ بمثالِه
أيهم عنــدَ ربّه مُتّقيه   ليتَ شعرى وأيهم غيرُ آلِه[1]؟
ليتهم إذ صَفَوْا بخَدٍّ ومالوا   عنْهُ أصْغَوا إليه عندَ ابتهالِه
مَنْ لهذا الشريدِ إنْ جَنّهُ اللّيْـ   لُ وأرْخى عليهِ منْ أسْدالِه؟
قابعٌ عندَ دِمْنةٍ تحتَ جُبٍّ   يحْسَبُ الغولَ زاحفاً لاغتيالِه
قد تعرّى إلى الثرى غيرَ فَضْلٍ   منْ قميصٍ مُهلْهَلٍ كرمالِه

مَنْ لهــذا اليتيمِ أمسى وحيداً
مُشفِقاً من غولِ الدُّجى وخيالِه

بينَ فكّيْنِ مِنْ طوىً وعَراء   يدفَعُ الموتَ وهْوَ بينَ نِصالِه
عالِقٌ بالحياةِ يبغى خلاصاً   ويَدُبُّ الفَناءُ فى أوصالِه
يتلَوّى كما تلوّتْ قطاةٌ   عزّها الفخُّ وهْىَ بينَ حِبالِه
أيُّها المانعونَ عنه زكاةً   فرَضَ اللهُ بذْلَها لِعيالِه
لا تصوموا ولا تقيموا صلاةً   إنْ ضَننْتُمْ بها على أمثالِه
يعلمُ اللهُ ما غَنِمْتُم جزاءً   أيها المُمْعِنونَ فى إذلالِه
أحسنوا البِرّ إن أردْتم ثواباً   وتواصَوْا بعِتْقِه وانتِشالِه

عزيز فهمى

(١) الآله : العابد.



الجارم البريء

للأستاذ حبيب الزحلاوى

توهمت أنى الشرقي المتأمرك الوحيد بين ركب الباخرة التي بعث بها الرئيس روزفلت إلى الشرق لتعود بالأمريكيين إلى ولاياتهم المتحدة قبل أن تقطع الطريق عليهم الحرب الوشيكة الوقوع بين أمريكا واليابان وحليفتيها . توهمت ذلك ، لأنى لم أرَ ساعة رفعت الباخرة مراسيها وأخذت تبتعد عن الميناء مودعاً واحداً يلوّح بمنديل ، ولا بصراً واحداً رنا لراكب واحد من ركاب هذه الباخرة التي ستشق طريقها بين عجاجات الجحيم المستعرة بين أنصار الحرية وأشياع الفردية .

ألقيت بالنظرة الأخيرة على ميناء بيروت ، ولما اختلطت الرؤى ، وصرت لا أميّز بالعين المجردة إلا أشباح جبال لبنان الضاربة قممها فوق الغيوم دون أشجار الصنوبر الخالدة ، طفقت أرود الباخرة أتطلع إلى ركابها الأمريكيين .

إن الروح الجماعية أصيلة فى خلق الأمريكان، تستميلهم المغريات كالفرنسيين ، ويدفع بهم حب الاطلاع إلى معرفة ما خفى من الأمور ، وما استتر من الأشياء وخفايا الناس أيضا ، وهم لا يتورعون عن المراهنة على كل حدث أو خاطرة ، فهذه الخاصة هى التى حفزت أكثر الركب ، وقد تعارفوا وتآلفوا، إلى معرفة طوية رجل متأمرك آخر سواى، نفور جالس فوق كرسى مستطيل من كراسى الباخرة لا يجيب عن سؤال راغب ، ولا يلتفت إلى طلب أى طالب ، سيدة كانت أم رجلا . وقد استمان هؤلاء الطُّلَعات بى، وكانت رغبتهم فى معرفة ازورار مواطنى الشرقي تكاد تنقلب شهوة ملحاحاً أكثر لجاجة من حبه الرهان .

قالت لى فتاة رفافة البشرة : « أحسب صاحبك عاشقاً ، لأن الحزن يجلل نفسه بوشاح من اليأس ! ! وقالت سيدة فقدت حيلتها فى مغالطة نفسها فتركت نفسها لأقدار الزمن : « صاحبك هذا قوى الغرام وهذه حالة تنتاب الكهول حين يشعرون بالهرم » وقال شيخ : « قد يكون سبب حزنه عدم إتمامه بناء القصر الذى بناه فى قريته فتركه يعشش فيه الخفافيش والبوم وعاد إلى أمريكا يجمع الدولارات ليتم بناءه » ولكنى فى بطنى « وهو يضحك » لكمة لولا تعود بطون الأمريكان تحملها لأفرغت ما فيها من كل منفذ . وقال آخر بتعمد الرصانة : « الجنسية الأمريكية للبنانيين حصانة تقى أطماعهم من طغيان إخوانهم الأقوياء » ، فقالت الفتاة الصبية مخاطبة هذا المعترض ، كنت دائما يا عمي العزيز تكبر فى اللبنانيين مقدرتهم فى شق طريقهم للحياة برغم تحاملك عليهم . قلت وقد قطعت على هؤلاء النقادة حبل استرسالهم : « هذا بحث فى خصال قوى سأحاسبكم عليه فى ظرف مناسب ، أما الآن وغايتكم معرفة صدوف مواطنى عنكم ، فأنى أتكفل بإشباع رغبتكم وإرضاء فضولكم .

البحر والوحدة أنجع دواء للشفاء من لوعة الحزن ، بل لا حرج على القائل : « إذا انطلق لسانى المحزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، وإذا لقيت شكواه قلباً واعيا انتقلت إليه » لقد استطعت بوسائلى الخاصة حل عقدة لسان هذا الحزين وهو من مدينة فى لبنان اشتهر سكانها بالفطانة والذكاء ، وعرفوا بالصلابة والعناد والأريحية والشمم لتأصل صفات الحربة فيهم فقال لى :

أتعرف حى البرازيلى فى زحلة ؟

قلت : أعرف الأبنية الجميلة المزخرفة القائمة على ضفاف البردونى !

قال : يوجد فى عاصمة البرازيل حى يشبهه فى هندسة البناء يدعى الحى الزحلى .

قلت : ما علاقة هذا بذاك ؟

قال : لست أبالغ إذا قلت لك إن جل طلاب الكلية الشرقية فى تلك المدينة كانوا يتوجهون وجهة الهجرة إلى البرازيل ، ولم يكن يجول فى خواطرهم إلا نيل شهادة الدراسة والرحيل إلى البرازيل واللحاق بأخوان سبقوهم إليها ، وهمهم العمل والكسب يبنون بناية جديدة فى الحى الزحلى فى البرازيل ثم العودة إلى زحلة يشيدون قصراً فخماً فى الحى البرازيلى الفخم :

قلت : أعرف روح المغامرة فى الزحليين دون سواهم من المهاجرين من لبنان .

قال : ما كدت أفوز بالشهادة المدرسية حتى رغبت إلى والدى أن يأذنا لى بالسفر إلى البرازيل وقد وافقا مكرهين .

كانت الباخرة التى أقلتنى آنذاك تمج بمئات من المهاجرين أمثالى ، وكانت مناديل المودعين ترفرف كأجنحة الحمام ، والعيون ترنو بين ساهمة ودامعة ، والقلوب تخفق خفقان حنان وحب ورجاء .

كنت مشرد اللب ساعتذاك ، أنظر إلى أمى وأبى بعين الولد البار ، وانظر إلى فتاة كانت بجانبهما بعين قلبى . لم تكن الفتاة غريبة عنى ، بل كانت من أقاربى الأبعدين ، وقد جاءت من « كفر شيما » خصيصا لوداعى . كانت معرفتى بها بسيطة محدودة ، أما فى ذلك الموقف ، موقف الوداع ، فقد انفتحت لها جوارحى فأحسست فجأة بأن كل ذرة من كيانى الذاتى تدعونى إليها ، وأنها هى هى المتممة لتكامل وجودى فى الحياة ، فوثبت على غير وعى وثبة قلب محفوز ، وأخذت أدفع الناس حتى شققت طريقى إلى سلم الباخرة ، فهرولت نحو والدى ، فأخذت يد الفتاة بيدى اليمنى ويد أمى بيدى اليسرى ، وقلت لوالدى هاك « أنيسة » خطيبتى بل زوجتى بالروح ، احتفظا يا والدى بها . لن يطول غيابى . سأقتحم البحر ، وأشق المنجم حتى أصل إلى الذهب أقتلعه من أصوله فأقدمه عربونا للزواج من حبيبتى « أنيسه » هذه . وقبلت جبينها قبلة خاطفة فيها كل الدوافع والبواعث والحوافز .

كان يتخلل حديثنا فترات ينقطع فيها الحديث لإشعال لفافة أو مسح جبين للاستذكار ، أو مشاهدة دارعة كقلعة تترنح ، أو غواصة تطفو وتغوص ، أو أسراب من طائرات تهبط وترتفع واحدة منها للاستكشاف

قال محدثى : غمر البحر معالم الأرض ، ولم تعد العين ترى إلا قبة مكورة فوق وجه الماء ، وكنت أرى بعين البصيرة وجه « أنيسة » الصبوح ، وعينيها الصافيتين الناعستين تدفعانى دفعاً إلى الأرض الجديدة التى سأنبش تربتها كالخلد وأقضم خيراتها كالجراد

بدت منابت الأمل فى نفسى تمد سوقها ، وتبرز براعمها ، وتورق وتزهر . وأخذ خيال السعادة يحوطنى بشملة من فرح ترينى وجه المستقبل نضراً بساما ، فوددت لو أستحث الباخرة أن تثب فوق اليم فتجتاز المحيط ساخرة من أنوائه وعواصفه فأصل طفرة إلى حلبة الجهاد والعمل . ثم صمت هنيهة وقال :

لقنى مواطنى فى البرازيل بضع كلمات من لغة البلاد ، وبعد أيام معدودات ملأت أكياسى بأنواع من جوارب ومناديل وأدوات زينة أعطانيها تاجر سورى ، أطوف بها شوارع عاصمة البرازيل أقرع أبواب المنازل أعرض على رباتها بضاعتى . كنت أحس الشفقة بى والضحك من رطانتى واغتفار جرأتى وفضولى

كان تقبل البرازيليين إياى على هذا النحو يحزفى كبريائى فانتقلت إلى الضاحية . جبت الريف وتوغلت فى القرى النائية أسعى على أقدامى ، وكلما نقصت بضاعتى كنت أرسل فى طلب سواها من عميلى الذى استأمننى ولا ضامن لى عنده سوى أنى مواطنه ! ؟

لله در الأمريكانى يا صديقى من عطوف شفوق ! ولكنه طلعة مغامر مراهن تستضيفه فيطعمك ويؤويك ، لا عن كرم ولا بدوات خاطر ، بل عن فضول حافز ملح إلى الاستطلاع والمعرفة

(البقية فى العدد القادم) حبيب الزحلاوى